# كامو بين العاطفة والحق

**اغامير محمد**

**كلية الآداب –جامعة وهران –**

تحتفل الأوساط الأدبية في العالم وفي فرنسا خاصة بالذكرى المائة لميلاد ألبيركامو الأديب العالمي صاحب رائعة رواية الغريب الذي مكنته من ولوج عالم الخالدين بحصوله على جائزة نوبل للآداب سنة **1957** .

ولد ألبيركامو سنة **1913** بقرية مندوفي( الذرعان حاليا ) من أب فرنسي وأم من اصل اسباني ، إشتغل والده بمعصرة للخمر حيث كان يخرج من بيته من طلوع الشمس إلى غروبها باذلا قصارى جهده للحصول على ما يكفي لسد الأفواه الجائعة التي تنتظره بالبيت ، وكانت عائلته من العائلات التي دفع بها اليأس و الشقاء إلى الهجرة من جزر مايورك إلى الجزائر وقبل ذلك وللسبب نفسه من الالزاس سنة **1871** .

فتح الصبي ألبير عينيه والعالم يدق طبول الحرب العالمية الأولى إذ جند والده لوسيان كامو بعد ميلاد ابنه ب 8 اشهر في فرق الزواف Zouaves ① ليلقى حتفه في معركة المارن الشهيرة في سبتمبر سنة **1914** وهو في عز شبابه لم يتجاوز سنه 34 سنة مخلفا أرملة وولدين صغيرين كان عمر ثانيهما ألبير سنة واحدة .

قد تركت هذه الحادثة مرارة في نفس الصبي إذ كتب عنها بعد ذلك بقوله «ترعرعت وكل من هم في سني وطبول الحرب الكونية الأولى تقرع، ومنذ ذلك الوقت لم يصبح تاريخنا إلا القتل والظلم والعنف " ②.

وظلت حرقة وفاة والده تلازمه طوال حياته إذ وصف حالة والـده وهو يحتضر جريحا بقولـه « جمجمـة مفتوحـة، أعمـى، أسـبوع طويـل في صـراع مـع المـوت، سـجل اسمـه في عـداد المـوتى ببلديـة (...) بعـث المستشفى إلى أرملته بشظية وجدها في الجسم.③ .

وكان نسب أمه محل افتخاره حيث كـان يـردد مـرارا انـه أمـده بالأحلام الرومانسية ، اضطرت أسـرته بعـد مقتـل والـده إلى النـزوح إلى مدينة الجزائر العاصمة وسكنت حي بلكور الشعبي حيث اشـتغلت أمـه خادمة في بيوت الأغنياء وكان الحـي مكتظـا بالـسكان المنحـدرين مـن أصول شعبية مختلفة مشكلين خليطا من الأجناس و العقائـد ثـب الطفـل الـبير في هـذا الجـو البـأس وأدرك بحـسه المرهـف إن الفقـراء مـصيرهم الوحدة والصمت ، فامتلأت نفسه بأحاسيس الأذكياء مـن أبنـاء الطبقـة المسحوقة : الشعور بالظلم والإهانة ومرارة التفاوت الطبقـي الـصارخ ، وهـي أحاسـيس ومـشاعر تـؤدى عنـد النفـوس الـضعيفة إلى الـوهن والاستسلام و الفرار إلى عوالم الوهم والخيـال ، لكنهـا عنـد ألـبير أدت إلى التحـدي والثـورة علـى الأوضـاع والـسخط والتمـرد وهـي الـسمة الظاهرة التي تجلت في أدبه، وكتب على ضوئها " الإنسان المتمرد "، وهو الكتاب الذي طبقت شهرته الآفاق .

"عرف السماء الصافية و الشمس والبحر والربيع ، وتاق في زمـن الحرب إلى الاطمئنان في حضن الشمس والبحر والربيع فلم يتح لـه ولا للإنسانية ذلك ، وشهد بأم عينيه حطام الفصول وعجز الإنسان، فـانطلق

من الشمس والفقر والحرب والعجز عملاقا يتحدى، يلقى أسئلة الإنسان وألغازه التي شغلت فكره ويحاول أن يجيب عليها من خلال فلسفته وأدبه ④. وقد وصف البير كامو نفسه تأثير الجو العام لهذه الفترة في حياته وفي مختلف أعماله الأدبية والفلسفية و مواقفه الفكرية والسياسية والإنسانية بقوله " إن اشد ما يشغلني أمر غلام كان يعيش في احد الأحياء الفقيرة ... يا له من حي و يا له من منزل.... وعلى الرغم من مرور سنين عديدة يستطيع هذا الغلام أن يتحسس طريقة إلى هناك في أحلك الليالي ⑤ .

- وفي مجتمعات كثيرة من العالم لا يتاح لطفل ينتمي إلى مثل هذا المستوى الاجتماعي فرصة اخذ قسط كبير من التعليم غير أن نظام التعليم الفرنسي حاول بقدر الإمكان تطبيق ذلك المبدأ العظيم الذي أتت به ثورة **1789** الذي يدعو إلى تامين المساواة في فرص الدراسة للمواطنين أو على الأقل للأوروبيين منهم .

- التحق ألبير كامو بالمدرسة الابتدائية عام **1919** ومكث بها إلى غاية **1924** وفي هذه الفترة قيدت العناية الإلهية للطفل ألبير رجل الأقدار وهو أستاذه لويس جرمان Louis Germain الذي أحاطه بالرعاية والعطف واهتم به اهتماما بالغا ،و كان لويس جرمان معلما ممتازا لكنه كان مهمشا لأنه كان جمهوريا مخلصا لمبادئ ثورة **1848** م – ثورة كميونة باريس- التي كان يعمل على نشر مبادئها الداعية إلى تحرير الطبقة الشغيلة ، لقد كان لويس جرمان يعطى لكامو دروسا مجانية خارج أوقات التدريس ملحا على تمكينه من دخول مسابقة الحصول على منحة التعليم الثانوي

وظل يتعهده بالرعاية إلى أن مكنه من دخول ثانوية بيجو بباب الواد التي حصل بها على البكالوريا سنة 1930 ، وفي تلك الحقبة من التاريخ لم يكن سكان الجزائر يولون كبير اهتمام للتعليم نتيجة فقرهم وعوزهم وكانوا يدفعون أبنائهم لعالم الشغل في سن مبكرة ويذكر كامو" أن عما له كان يهدد بالقتل كل من حاول أن يفسد عقل ابن أخيه بالتعليم " ⑥ .

– درس كامو بالثانوية وكان عليه في هذه المرحلة من حياته أن يواجه السخرية والانتقادات اللاذعة التي يوجهها له أبناء الأغنياء لأنه كان فقيرا ويسكن حيا شعبيا ، وكان عليه أن يتحدى هذه المضايقات بتفوقه العقلي والجسدي ، فسطع نجمة تلميذا نجيبا ولا عبا لكرة القدم و سباحا يهوى هذه الرياضة لحد التقديس . وكان مرة أخرى على موعد مع القدر إذ تعرف على أستاذ أخر لا يقل أهمية وعظمته عن الأول وهو Jean Grenier الذي أهدى له فيما بعد باكورة أعماله " الوجه والقفا " l' Envers et l' Endroit وبعد ذلك كتابه المتمرد " le révolté " ، كان جون غريني مسيحيا من اصل بروتاني ، غير متزمت عقائديا وعلى شيء من الصوفية ومن عشاق الحضارة الإغريقية .

– أصيب كامو بمرض السل سنة 1931 وكان وقتها المصل الواقي والشافي من هذا المرض غير معروف فاضطر أن ينام الأسابيع الطوال في بهو المستشفى بغية العلاج، ورغم كل هذه المشاكل الصحية والصعاب الاجتماعية واجه قدره بكل عزم وإرادة وتحدى ، فواصل دراسته الجامعية منتسبا إلى جامعة الجزائر أنهاها بتقديم رسالة موسومة " العلاقة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة المسيحية ممثلة في الفيلسوف أفلوطين والقديس أوغسطين "وهكذا وصل إلى إشكالية الماهية والوجود التي كانت فيما بعد ، عن

طريق الفلسفات الألمانية لهيجل وهايدغر وهوسرل وياسبرز ، ستريق سيولا من الحبر في العالم الغربي ⑦ ..

- أن اختيار هذا الموضوع له أكثر من دلالة " ذلك انه إذا كان تذوقه للجمال يلحقه باليونان عن طريق أفلوطين الذي يعتبر وريثهم الشرعي ، فان اضطرابه بالمقابل حيال عالم يعاني من غياب الرب يقربه من قلق ميتا فيزيقي للقديس أوغسطين الذي هو الأخر من مواليد الشرق الجزائري ⑧ .

- سنة 1937 عاوده مرض السل فانقطع عن الدراسة دون الحصول على شهادة التبريز مقتنعا انه لم يخلق لمهنة التدريس التي كان يعد نفسه لها فانخرط في سلك وظائف الدولة الأخرى وكانت مرحلة من اشق المراحل في حياته مارس فيها عدة وظائف : كاتبا إداريا وبائعا لقطع غيار السيارات وسمسار تجاري وغيرها من مهن ثانوية لم يخلق لها ولم يحبها يوما .

- كان أستاذه Jean Grenier قد حبب له المسرح ، وفي الثلاثينات كان الحزب الشيوعي الفرنسي يؤكد على النشاط الثقافي ويحبذ تلاحم الانتليجستيا بالطبقة العاملة وانشأ لذلك عديد الأماكن للنشاط المسرحي والسينمائي والفني وهكذا انظم كامو إلى دار الثقافة وأسس فرقة مسرحية le théâtre des travailleurs وألف أول مسرحية له بعنوان " تمرد في بلاد الاستوريا Révolté dans les Asturies التي منع عرضها لأنها تتعرض لثورة عمال المناجم باسبانيا سنة 1934 وتأسيسهم لجمهورية يقودها عمال وفلاحون⑨ .

- إشتغل فيما بعد بإذاعة الجزائر وأسس فرقة مسرحية أخرى سماها théâtre de l'équipe ،مثل عدة مسرحيات مقتبسة من الآداب العالمية وبلغ به حب المسرح إلى أن صرح ذات يوم قائلا " وحتى يومي هذا أخال المكانين الوحيدين في العالم اللذين اشعر في رحابهما بالبراءة هما الملعب وقد اكتظ بالمتفرجين في مباراة يوم الأحد ، والمسرح الذي أكن له حبا لا مثيل له في القوة والتطرف ⑩ .

- سنة 1934 يتزوج بسيمون هي Simoun Hie سرعان ما انفصلا عن بعض ، وفي نفس السنة انخرط في الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كلفه بالعمل الدعائي في أوساط المسلمين لجلب المنخرطين لكنه يؤمر بتجميد النشاطات الموجهة نحو العرب بعد أن وقع "لافال "زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي اتفاقا مع" ستالين " إذ كانت موسكو لا تحب مطالب الوطنين الجزائريين لأنها تضعف حليفها الجديد في أوروبا "(11) ، وكانت أسطورة روسيا كبلد مسالم يطلب الخير ويحقق على مهل فردوسا على هذه الأرض من الأوهام الجميلة التي كان الطلاب يؤمنون بها دون تمحيص ، ففي تلك الفترة سافر André Gide إلى روسيا بدعوة من الكرملين وخطب في الجماهير المتحمسة لبناء الفردوس الموعود في الميدان الأحمر" بموسكو " وكان من الأمور الشائعة بين أقران كامو أن يصبح المرء عضوا في الحزب (12).

- سنة 1935 استهوته الصحافة، وتوثقت صلته بالكاتب الصحافي Pascal PIA رئيس تحرير جريدة الجزائر الجمهورية Alger

républicain وهكذا تحقق جزء من أحلامه حيث تمكن من الانضمام إلى أسرة تحرير جريدة ذات انتشار واسع وخط فكري وأيديولوجي ينسجم مع أفكاره و معتقداته .

- تأسست هذه الجريدة في 6 أكتوبر 1938 وكان خطها الافتتاحي يعمل على تحقيق سياسة الإدماج التي كان يرفضها المستعمرون والعرب على حد سواء ، وقد كتبت في أكتوبر سنة 1938 "انه لا يجوز أن يكون هناك صنفان من الفرنسيين ، بل صنف واحد يشمل الباريسي وليد باريس والعربي أصيل الجزائر ومن اجل هذا نطالب بالمساواة الاجتماعية بين جميع الفرنسيين ، كيفما كان منشأهم أو معتقدهم أو فلسفتهم " وليس ثمة أية إشارة إلى مساواة الطرفين في الحقل السياسي " (13).

- لقد تمكن من خلال فضاء المسرح المتاح له أن يعبر عن أحاسيسه وقلقه تجاه مشاكل العصر المطروحة خاصة الخطر النازي الزاحف كالطاعون على الكرة الأرضية ، تغيرت سياسة الحزب لكن كامو لم يتزحزح عن إخلاصه للجزائريين العرب الفقراء لذلك كان أول مقال صحفي رئيسي كتبه كان تحقيقا عن بؤس سكان منطقة القبائل كشف فيه عن كثير من جوانب الإنسان العادل عنده ، تعرض بالتفصيل للأحوال الاجتماعية المتدهورة التي يعانيها سكان هذه المنطقة من الجزائر ، الذين يعلمون لصالح طبقة رأسماليه مستغلة سخرتهم لخدمة مصالحها وحرمتهم من ادني الشروط والحقوق التي

يجب أن يتمتع بها العامل الإنسان على وجه الأرض " وفي تيزي وزو شاهدت أطفالا يرتدون أسمالا بالية وينافسون الكلاب على محتوى القمامات " (14) .

صور هذا التحقيق الأوضاع البائسة لسكان منطقة القبائل لكن عين المستعمر لا تنام فسرعان ما فقد كامو عمله في الجريدة ونفي إلى باريس فاشتغل سكرتير تحرير في جريدة باريس/ المساء " paris soir" وسرعان ما دخل في سجال مع جان بول سارتر لأنه هاجم مسرحية الغثيان " اذ اعتبرها تركز على الجانب السلبي للإنسان للدلالة على شقاء الوجود ، كما أنها تنكر كل قيمة للحياة " (15) . لم يكتف كامو بهذا بل دافع على قضايا المظلومين من العرب المحالين على المحاكم الفرنسية وأهمها قضية الشيخ الطيب ألعقبي الذي اتهم بقتل مفتي الجزائر ، لقد بين في سلسلة مقالات تشير تباعا أن الاتهامات الموجهة ضده ترتكز أساسا على شهادات انتزعت من أصحابها تحت التعذيب ، ولهذا اضطر القضاء إلى تبرئة ساحة الشيخ المتهم .

- انكب كامو على دراسة بعض الفلاسفة وعلى رأسهم رائد الوجودية المسيحية "سورين كيركيجارد "والفيلسوف الألماني نيتشه اللذين استفاد منها في كتاباته خاصة في رواية الغريب وهكذا عبر " عن المسائل التي طالما اصطدم بها الفكر البشري لا تعبيرا علميا فنيا غامضا بل تعبيرا أدبيا قصصيا قريبا من الفهم عند عامة القراء (16) .

- اندلعت الحرب العالمية الثانية فتقدم للتجنيد مقتنعا متضامنا ضد النازية الخطر المحدق بالجميع فرفض (بضم الراء ) نظر لحالته الصحية.

- بعد احتلال باريس انتقل كامو إلى Clermont Ferrand بالقرب من فيشى vichy حيث انتقلت الصحيفة التي كان يعمل بها وفي تلك الفترة كتب روايته الغريب ولظروف النشر لم تظهر إلا سنة 1942، انكب على دراسة مشاهير الأدباء مثل مارسيل بروست واندري جيد ومونترلان و أعجب إعجابا كبيرا ب André Malraux وقد كتب في تلك الفترة قائلا من العتب أو العناء أن يحاول المرء أن يفصل نفسه عن الآخرين أو أن يدفن رأسه في الرمال مثلما تفعل النعامة عندما ترى الصياد فلقد وجد نفسه في موقف صعب وكان عليه أن يختار لان الحياة اختيار هكذا علمته الفلسفة الوجودية التي آمن بها وجسدها في كتاباته ومواقفه فهو إما أن يتعاون من الألمان أو أن يقاتلهم ، فاختار القتال بالوسائل المتاحة فكتب المقالات النارية تحث أبناء جيله على التكتل ضد الخطر النازي لأنه وباء ، وهكذا كتب رواية "الطاعون "العظيمة التي تجرى أحداثها بوهران، فلقد اتخذ وهران معادلا موضوعيا لفرنسا والجرذان والطاعون رمز للاحتلال الألماني الذي يجب التجند ضده رامزا للمقاومة بشخصية الدكتور ريو .

- استقال من عمله في جريدة باريس المساء وهاجر إلى مدينة ليون حيث تزوج بفرانسيس فور التي كانت وهرانية المولد والنشأة

وهاجر معها إلى وهران حيث سكنا في 67 شارع العربي بن مهيدي في منزل مملوك لأهلها خططوه خصيصا لهم يتناسب مع ثقافتهم ونظرتهم للحياة .

- اعدم النازيون رمزا من رموز المقاومة وهو Grabriel Béret احد أقطاب الحزب الشيوعي فكانت الحادثة ألقطره التي أفاضت ألكاس فانظم إلى المقاومة من جديد وأسس في باريس جريدة كفاح « Combat » وراس تحريرها ، فكانت لسان حال المقاومة ، اشترك معه في تحريرها صديقه القديم باسكال بيا ورائد الوجودية جان بول سارتر Jean Paul Sartre ، لقيت الصحيفة صدى واسعا عند القراء خاصة عند الشباب منهم ورغم أنها كانت تطبع بصفة محدودة إلا أن تأثيرها كان واسعا ،بعدها تغير الجو في فرنسا فلم يعد جو المفكرين النبلاء وأصحاب الآراء الجديدة ، بل جو الأحزاب الانتهازية بمناوراتها الوضيعة ودسائسها الدنيئة ، فاستقال من رئاسة الصحفية ،والعجيب أن يهوديا تونسيا اشتراها وحولها إلى صحيفة رجعية (17)

- أطبقت شهرة كامو الأفاق ووجد نفسه يرقى إلى مركز قيادي في السياسة والأخلاق والآداب وقد كتب جان بول سارتر يصف هذه الهالة في كتاب إلى كامو سنة 1945 " نكتشف كامو المقاوم كما اكتشفنا من قبل كامو مؤلف الغريب قارنا بين محرر كومبا السرية وبين مرسو بطل الغريب ،عندما أدركنا على الأخص انك لم تكن قط عن كونك

الأول والثاني معا ، دفعنا هذا التناقض الظاهر إلى المزيد من معرفة أنفسنا والعالم ، كدت تكون المثال الذي يجب أن يحتذي ، لأنك حملت في داخل نفسك صراعات عصرنا كلها وتخطيتها لشدة حرارتك في عيشها ،كنت شخصا حقيقا اشد ورثة شاطوبريان تعقيدا وغنى ، لقد أتاك الحظ كما واتتك الخصال ، واتيت لحسن العظمة بعشق الجمال ولفرح الحياة بحس الموت ... لشد ما أحببناك حينئذ (18).

- بعد انسحابه من جريدة كومبا لم يكتب بانتظام في أية صحيفة أخرى إلى أن جرفه طوفان الثورة الجزائرية فاضطر للتعبير عن رأيه بسلسلة من المقالات في صحيفة الاكسبرس الفرنسية الصحيفة التي كان يديرها منديس فرانس، فيها ينتقل من الأمل والثقة إلى ضرب من التعب النفسي ، ففى سنة 1956 يقترح هدنة مدنية لتقليص الأخطار التي يتعرض لها السكان المدنيون كما أن نظرته كانت ترى جزائر يتعايش فيها العرب والبربر والأوروبيون وكل الإثنيات التي اختارت العيش على أديم هذه الأرض ، لكن الوطنية الزائدة والتعصب من الطرفين عصفت بهذه الفكرة ، بعد هذا لاذ كامو بالصمت والعزلة . إلى أن أعلنت الأكاديمية السويدية عن فوزه بجائزة نوبل سنة 1957 وهو شرف كبير وتقدير لا نظير له ناله بعد برغسون ومارتن دي غار واندري جيد وفرانسوا مورياك وكان أصغرهم جميعا كما أكد ذلك الباحث بول جنسية Paul Jinestier .

- أثناء حفل تسليم الجائزة في السويد القي كلمة تطلب من كل فائز بالجائزة أن يعبر فيها عن أرائه في مختلف قضايا العصر أو بعضها على الأقل ، ولكم كانت دهشة القراء كبيرة عندما قال كلمته الشهيرة :"**عندما اختار بين العدالة وأمي فاني اختار أمي**" معبرا عن انحيازه لامه فرنسا على حساب الجزائريين و حقهم في الحرية والاستقلال، وهكذا خاب أمل الجزائريين خاصة في احد أبناء الجزائر الذين ولدوا وعاشوا بها وكتبوا من وحي سمائها وبحرها وبرها واتخذوه مسرحا لأعمالهم الأدبية والفنية التي خلدتهم إلى الأبد ،ومما يؤخذ على كامو انه كتب عن الجزائر عن بحرها وسمائها وشمسها لكنه لم يكتب عن الجزائريين إذ أن رواياته المختلفة و روايته الشهيرة الغريب خاصة لم تذكر المواطنين الجزائريين بالأسماء والصفات بل بكلمة العربي بدون ملامح ولا قيم ولا صفات ، كما أن بطلها مرسو إدانته العدالة الفرنسية بالإعدام لا لأنه قتل عربيا بل لأنه لم يكترث ولم يتأثر وهو يقف على جثمان أمه ، يبقى السؤال مطروحا هل الغريب هو مرسو الذي لم يكترث ولم يتأثر بوفاة أمه فرنسا التي كان وجودها يحتضر في الجزائر؟ أم أن الغريب هو الوجود الفرنسي في الجزائر؟ .

- فالاغتراب عند كامو كان اغترابا عن الذات والعالم ونتج عن ثنائية حب الحياة وقصر هذه الحياة المادية في عالم خال من القيم السامية، لذا عاش ظاهرة القلق الوجودي التي تجلت في مختلف أعماله الفنية والأدبية .

## الهـوامش :

1 – الزواف zouaves تسمية تركية لجيش كان يضم المتطوعين من المشاة احتفظت فرنسا بهذه التسمية لتطلقها على المتطوعين من مختلف الجنسيات ( راجع محمود إحسان الهندي الحوليات الجزائرية : تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال – دمشق 1977) ص 52

2-Albert Camus Cahiers **1** - Gallimard p **32**
3-Albert Camus" L'envers et l'endroit" Collection Idées - Gallimard - p **75** - cité par Paul Ginestier in «pour connaitre la pensée de camus – Bordas **1964**

4 – علي عقلة عرسان " سياسة في المسرح « منشورات اتحاد الكتاب العـرب دمـشق 1978 ص 36

**5** - Albert Camus « « L'envers et l'endroit
Collection Idées – Gallimard p **60**
**6** - André Parinaud : « camus la vie d un Écrivain Engagé « éd .Hachette paris **1964** p **38**

7 – جرمين برى " البير كـامو " تـر / جـيرا ابـرهيم جـيرا طبـع المؤسـسة العربيـة للدراسات والنشر ص 37 .

8 - Maria Ardizio : Camus Ed Du culot **1983** p **3**
**9** –Herbert R .Lottman – Albert Camus راجع
Tra duit de l'Américain par Marianne Veron
Editions du Seuil **1978** p **115**
**10** -André Parinaud : Camus : la vie d'un Écrivain engage p**15**
**11** - Maria Adizio : op cit p **39**

12 - Jean Grenier : Albert Camus- Gallimard -1980 P 37

13- احمد طالب إبراهيمي :"البير كامو في نظر جزائري مجلة الفكر التونسية السنة 15 ع 9 جوان 1970 ص 7 وكذلك راجع رسائل من السجن لنفس المؤلف ، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

14 -Camus – Actuelles Collection de la pléiade Gallimard – 1965 p 927

15 - Roger Quillot « la mer et les prisons « Essai sur AlbertCamus - Gallimard -1970- p13 .

16 – فرحات الرشداوي : " كامو بين الموت والخلود والأدب الحق " مجلة الفكر التونسية ع 7 افريل 1960 ص 35 .

17- عبد الرحمن بدوى " دراسات في الفلسفة الوجودية "دار الثقافة- بيروت لبنان ص 3 1973 ص 157 .

18 – جرمين بري " البير كامو " تر / جير إبراهيم جيرا ص 59 و 60